المادة : نظرية الأجناس الأدبية المستوى: ثانية ليسانس ـ دراسات نقدية ـ

الدكتورة : **كلثـــوم زنيـــــــنة**

المحاضرة الأولى: مدخل **إلى نظرية الأجناس الأدبية**

1 ـ مفهوم الجنس الأدبي:

تعد فكرة **التجنيس** في الأدب فكرة قديمة تمتد في الفكر النقدي الغربي والعربي على حد سواء، وترتبط ارتباطا مكينا بالأدب بل وتنبثق عنه. وتقوم على ملاحظته. ويعد الكلام في الأجناس الأدبية مبحثا نقديا قديما، لكنه يمتاز بالتجدد؛ فهو يجدد نفسه كلما استجد شيء في مجال النقد الأدبي أو علوم اللغة، أو المعارف الإنسانية بوجه عام، منذ بدايته الأولى التي أرسى دعائمها أرسطو، وقد تعددت آراء الباحثين والنّقاد حول قضية الأجناس الأدبية، وتنوّعت تصوراتهم واجتهاداتهم، وذهبوا في موقفهم منها مذاهب شتى. وامتد الاهتمام بتجنيس الأدب إلى النقاد الغرب والعرب وإن كانت لم تنل ـ لدى النقاد العرب ـ حظها من الاهتمام إلا في العصر الحديث عبر العصور المختلفة، وبذلك عرفت نظرية الأجناس الأدبية تحولات وتطورت، وتأثرت بمختلف التوجهات والأفكار والاتجاهات اللسانية المختلفة.

ولو أردنا العودة إلى **المفهوم اللغوي** لكلمة جنس في معاجم العربية ، فإننا نجدها تنصرف إلى الدلالة على: الضّرب والنّوع والشّكل، وورد في اللسان أن الجنس هو "الضرب من كل شيء وهو من الناس ومن الطير ومن حدود النحو والعروض والأشياء جملة، والجمع أجناس وجنوس... والجنس أعم من النوع، ومنه المُجَانَسُة والتّجنيس، ويقال: هذا يجانس هذا؛ أي يشاكله...والإبل جنس من البهائم العجم... والبقر جنس، والشاء جنس... والنّوع أخص من الجنس، وهو أيضا الضرب من الشيء"[1] والجنس جمع أجناس وهو: ماهية تقسم أنواعا: متعددة كالحيوانية في الإنسان وفي الفرس؛ فالإبل مثلا جنس من البهائم، والجنيس: الأصيل في جنسه[2] فالتجانس هو التقارب والاتفاق والتلاؤم

كتجانس الألوان (التنسيق بينها) والعمل المتجانس (المنسق الأفكار) ... ولكن ماذا عن 1- 1- مفهوم الجنس الأدبي؟

أما اصطلاحا: نشير في البداية إلى اختلاف النقاد والباحثين في تحديد مفهوم الجنس الأدبي، ووردت لدى كثيرين منهم تحت مسميات عدة كالنّوع والشّكل واللّون الأدبي... ويعزى اختلاف تسمية هذا المصطلح إلى اختلاف المرجعيات الفكرية التي ينطلق منها الباحث أو الناقد، وعليه تعرّف الأجناس الأدبية على أنّها:" مجموعة الأنظمة والقوانين الموضوعة في نسق عام، والتي تمارس سلطتها العليا على التنظيم الإبداعي للمنتج، وتصبغه بآليات وكيفيات تميّزه عن غيره، وهي تعمل جاهدة على المحافظة عليه، وعدم السماح لمبدعه

التغيير في معالمه والتّقنع بمظاهر الجديد"[3] أي أنها تعمل على إثبات خصائصه الأدبية التي تساعد القارئ على معرفة هُوّيته والتعامل معه استنادا إلى هذه الهُوية. ومن ثم يفرض

الجنس الأدبي ـ أي جنس ـ سلطته على المتلقي، كبنية فنية مجرّدة ومختلفة عن بنيات النّصوص الأخرى. ولعلّ هذا ما تحدث عنه جان ماري شيفر في قوله إن: "هوية جنس ما هي بصورة أساسية، هُوّية مصطلح عام مماثل مطبّق على عدد من النصوص. يمكن أن يكون هذا التعميد جماعيا وواحدا بالنسبة لكل طبقة (هذه الطبقات المشكلة والتي حددت هويتها في الماضي، مثلا؛ جنس الرواية التعليمية)، أو فرديا غالبا ويكون عندئذ متعددا (هذه حالة عنوان الرواية، بطريقة مثالة، الذي هو وقبل كل شيء عنصر مرافق للنص، أي أن فعل التعميد يرتبط دائما بفعل فردي)[4].

وفي هذا الصدد، يذهب الناقد غنيمي هلال في تحديده للجنس الأدبي إلى أن المقصود بالأجناس الأدبية تلك "القوالب الفنية الخاصة التي تفرض بطبيعتها على المؤلف اتباع طريقة معينة، فمثلا يتبع المؤلف طريقة خاصة، حيث يعالج في شكل تمثيلي نفس الموضوع الذي يعالجه آخر في قالب خطابي، وتستخدم هذه الأجناس في تقسيم الانتاج الأدبي إلى فروع"[5] أو بتعبير آخر، يمكن عد الجنس الأدبي "خانة تصنف بداخلها مجموعة من النصوص الأدبية تبعا لمعايير متنوعة، ولذلك فهو مقولة جمالية تتحدد على أساس قرائن وأساليب مكرسة، وتتحكم في انتماء عمل ما إلى نوع من الدقة المصطلحية، إذا ماهي الحدود أو الفوارق بين الجنيس(Genre) أو الفرعي(Sous-Genre) وفوق هذا هل من الضروري حين تقرأ نصا دعاه مؤلفه برواية نقرأه فعلا رواية"[6]

ولعل مثل هذا السؤال يطرح نفسه بحدّة في عصرنا هذا في ضوء "انفجار الأنواع الأدبية، وتشظيها، وتداخل الحدود بينها تداخلا يجعل الغموض سيد الموقف، والقراءة مغامرة في معميات النصوص وسدمها المبهمة،"[7] فالأجناس الأدبية رغم التحديدات تداخلت منذ القدم واستفادت من بعضها البعض في الوقت الذي ظلت فيه رغم انفتاحها محافظة على كيانها الخاص. وهي اليوم تعرف تداخلا غير مشهود تكاد تغيب فيه معالم الجنس الواحد.

لكن رغم التداخل الذي تفرضه طبيعة الأدب، فإن "مفهوم الجنس (الأدبي) وخصوصيته يبقى قائما رغم وجود دعوات النقاد إلى مفهوم نفي الجنس الأدبي، أو نقاء الجنس الأدبي"[8]، ويبقى أهم ما يسمه، هو خاصية الثبات، فمن البديهي أن "الجنس الأدبي هو مؤسسة ثابتة بقوانينها ومكوناتها النظرية والتطبيقية، حيث يتعارف عليها الناس، إلى أن يصبح الجنس قاعدة معيارية في تعريف النصوص والخطابات والأشكال، والتمييز بينها تجنيسا وتنويعا وتنميطا. ويتحدد الجنس الأدبي بوجود قواسم مشتركة أو مختلفة بين مجموعة من النصوص، باعتبارها بنيات ثابتة متكررة ومتواترة من جهة، أو بنيات متغيرة ومتحولة من جهة أخرى. وهذا ما يجعل تلك النصوص تصنف داخل صيغة قولية أو جنس أو نوع أو نمط أدبي معين. لكن عناصر الاختلاف الثانوية لا تؤثر بشكل من الأشكال على الجنس الأدبي، ظهر على إثره جنس أدبي آخر توالدا وتناسلا وانبثاقا"[9]

وبمعنى آخر يعد الجنس الأدبي كما يورد الناقد المغربي جميل حمداوي: مبدأ تنظيميا ومعيارا تصنيفيا للنصوص ومؤسسة تنظيرية ثابتة، تسهر على ضبط النص وتحديد مقوماته ومرتكزاته وتقعيد بنياته الدلالية والفنية والوظيفية من خلال مبدأ الثبات والتغير. ويساهم الجنس الأدبي كما يذهب الناقد في الحفاظ على النوع الأدبي، ورصد تغيراته الجمالية الناتجة عن الانزياح والخرق النوعي10

ويقر الباحث سامي شهاب بصعوبة تأطير الأدب وتقنينه وفق أنظمة وقوانين موضوعة في نسق عام، ويذهب إلى أن هذا الأمر غير ممكن، إذ إن "رؤى المبدع تتغير تبعا للظروف الاجتماعية المحيطة به التي ترغمه على الإفلات من أسره ومحاولة تحديث ما يمكن أن يكون ملائما لروح العصر، وهذا يعني أن الجنس أو النوع الأدبي كالنوع البيولوجي، ينشأ ويتطور، وينقرض"[11]

وما نخلص إليه من بحث مفهوم الجنس الأدبي:

ـ فكرة التجنيس في مجال الأدب ليس وليدة العصر، فهي قديمة إذ إنها ترتبط بالأدب وبالفكر الأدبي وبتأمله ونقده.

ـ الأجناس الأدبية كما تذهب الدراسات والأبحاث، ماهي إلا قوالب وأطر فنية خاصة، يتموضع فيها الأدب، فتحدد هويته بوصفه أجناسا أدبية، تختلف فيما بينها، بحسب البنى الفنية والأسلوبية والصور المستعملة، وغيرها من الخصائص التي ينبغي ألا تنهض إلا في إطار الوحدة الفنية العامة للجنس الأدبي الواحد، مهما اختلفت المرجعيات واللغات وأيضا العصور الأدبية.

ـ هناك اختلاف بين الباحثين والنقاد (الغرب ومن ثم العرب) في استعمال المصطلح، وقد تراوح استعمالهم للمصطلح بين الجنس والشكل والنوع. ويمكن أن تؤكد ذلك العناوين الآتية:

ـ كتاب عبد الإله الصائغ: في التجنيس بين الخطابين الشعري والسير ذاتي

ـ كتاب عبد الله إبراهيم: مقدمة في الأنواع الأدبية

ـ يعد الجنس الأدبي أحد أبر القضايا الهامة لنظرية الأدب، إذ إنه يساعد على وصف وتفسير وتصنيف ونمذجة وتحقيب النصوص الأدبية، وإدراك ما مسّها من تطور جمالي وفني عبر صيرورتها التاريخية، وقد فتح النقاد مجددا باب النقاش ـ في هذا العصر ـ في قضية التجنيس لما شهدته الأجناس الأدبية من تداخل فيما بينها.

2ـ تاريخية التجنيس الأدبي

تكتسي جهود أرسطو طاليس (384ــ 322 ق. م) أهمية بالغة في مجال التجنيس Généricité الأدبي، فهو واضع اللبنات الأولى لنظرية الأجناس الأدبية في منجزه النقدي الأول في تاريخ النقد الأدبي، المتمثل في كتابه فن الشعر، فمن خلال نظريته الرائدة (المحاكاة)[12] الذي يذهب فيها إلى أن الفن محاكاة للطبيعة والإنسان، وهي تختلف باختلاف

الفنون، استطاع أرسطو أن يسيطر على العقل الأدبي والنّقدي الأوربي إلى أوساط القرن الثامن عشر، حيث قدم أول جهد منهجي منظّم في تاريخ نظرية الأدب. ومن خلال ما وصل منه(الكتاب) يمكن استنباط نظرية في طبيعة الأدب ووظيفته بشكل عام[13] فإذا كان أفلاطون قد قسم الشعر اليوناني إلى ثلاثة أقسم هي السرد الخاص والمحاكاة أو العرض، والمشترك، منطلقا في تقسيمه من النتاج الإبداعي، وليس من مقومات الجنس، فقد قسم أرسطو الأدب إلى ثلاثة أقسام هي: الأدب الغنائي والملحمي والدرامي.[14] وأكد على الحدود الفاصلة بين كل جنس، وبذلك لم تقف جهوده عند هذا التقسيم، بل بيّن خصائص كل من التراجيديا والملحمة في الموضوع أو الأداء والوظيفة، كما بين أن كل نوع أدبي يختلف عن النوع الآخر من حيث الماهية والقيمة، وعمل بالمبدأ القائل: أن كل نوع أدبي يقدم درجة إشباعه الخاصة به ويعمل حسب مستواه الخاص به[15]